تصدير

بقلم

الدكتور مصطفى زيور

فى السادس من شهر مايو سنة ١٩٥٦ احتفلت الأوساط المعنية بالتحليل النفسى فى جميع أنحاء العالم بمرور مائة عام على ميلاد مؤسس التحليل النفسى « سيجموند فرويد » . وقد آثر أعضاء الرابطة المصرية للتحليل النفسى أن يكون احتفالهم بهذا العيد المئوى نشاطاً علمياً ، فينشرون من الفصول والكتب ما يبرز القيم العلمية والثقافية والفلسفية للتحليل النفسى .

وأول ما ينبغى نشره بهذه المناسبة ، هو السيرة العلميّة للمحتفل به ، وتاريخ جهاده العلمى . وقد اضطلع « فرويد » نفسه بهذه المهمة عام ١٩٢٥ . فقد كان أحد أقطاب الطب الذين وُجهت إليهم الدعوة ليكتبوا سيرهم العلمية لكى تجمع فى كتاب يمثل غاية ما أحرزه الطب من تقدم . وقد نشرت سيرة « فرويد » بقلمه فى الجزء الرابع من هذا الكتاب وعنوانه «الطب فى الوقت الحاضر ممثّلاً فى السير العلمية بأقلام أصحابها » — ليبزج ١٩٢٥ . ولا شك أنه ما من أحد يستطيع أن يكتب سيرة « فرويد » العلمية خيراً من « فرويد » نفسه . ولذلك فقد آثرنا أن ننقلها إلى العربية بوصفها باكورة ما اعتزمنا نشره من الكتب .

وثمة سبب آخر دعانا إلى البدء بنشر هذا الكتاب . فمن المعروف أن دراسة تاريخ مبحث من المباحث العلمية يُعتبر خير مدخل إليه . أما بالقياس إلى التحليل النفسى ، فإن المدخل التاريخى أمر لا بدّ منه ، إذ لا يستقيم فهم كثير من قضايا هذا العلم إلا إذا تبينا نشأتها ، وتتبعنا تطوّرها .

ذلك أن قضايا التحليل النفسى لا تقتصر على كونها إضافات إلى التراث

العلمى ، وإنما تحمل فى ثناياها — فضلاً عن ذلك — انقلاباً فى التصور ، وتطوراً بعيد المدى فى مذاهب البحث فى أحوال الإنسان . لقد نشأ التحليل النفسى فى أحضان الطب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن ، فكانت نشأته إيذاناً بثورة على المفاهيم الطبية التى كان يعتنقها الأطباء إذ ذاك بصدد طائفة من الأمراض . وكان ميلاده بمثابة تعديل جوهرى فى فلسفة البحث فى أخطر ما يلم بالإنسان . ومن الجلى أن فلسفة البحث فى الإنسان تنطوى على فلسفة معينة فى النظر إليه . ولا بدّ لفهم هذا التعديل الفلسفى الخطير من دراسة تاريخية لخطواته .

ولا تقتصر ضرورة المدخل التاريخى على ما ذكرت . فعلى الرغم من أن التحليل النفسى قلب ظهر المجن للمفاهيم الفسيولوجية فى ميدان الطب النفسى إلا أنه ظل مخلصاً لروح هذه المفاهيم ، ملتزماً مبدء الحتمية ، مصطنعاً أساليب الملاحظة العلميّة واستقصاء الوقائع وفقاً لما جرت به التقاليد فى مباحث الأحياء . وهذا يفسر لنا بعض ما دعا « فرويد » فى كتابه هذا إلى بيان ما قام به من بحوث فى مطلع حياته العلمية فى تشريح الجهاز العصبى وأمراضه . فليست هذه البحوث شيئاً منقطع الصلة باكتشافاته فى التحليل النفسى . ويكفى أن نذكر أن جمهرة الأطباء كانوا فى أواخر القرن التاسع عشر ينظرون إلى الأمراض النفسية بوصفها بعض أمراض الجهاز العصبى ، وأن البحث فى أحوال النفس لا يكون علماً إلا إذا قام على أساس من تشريح الجهاز العصبى ودراسة وظائفه ، ومن ثمّ فإن « فرويد » كان يدرس علم النفس وفقاً لمذاهب القرن التاسع عشر عند ما كان يجرى بحوثه التشريحية .

حقا إن بعض أعراض الأمراض النفسية ، وبخاصة أعراض الهستيريا كانت تبدو وكأنها سخرية لاذعة بالمفاهيم التشريحية. فها هوذا الشلل الهستيرى يشبه الشلل العضوى فى كل مظاهره إلا فى عصيانه لمبادئ التشريح . ومن أجل ذلك ومن أجل أمور أخرى مماثلة أيقن « فرويد » أنه لا بد من تعديل فى مذاهب

البحث والتصور إذا أردنا أن نجلو غموض هذه المفارقات .

والواقع أن أول جولة انقلابيّة قام بها « فرويد » لم تكن فى مجال الأمراض النفسية ، وإنما فى باب من أبواب الطب العصبى العضوى ، أعنى مسألة « الأفازيا » أى أمراض النُّطق . فقد ضاق بالتصور التشريحى البحت لهذه الأمراض لقصور هذا التصور عن تفسير كثير من مظاهرها ، وابتدع تصوراً دينامياً عنى فيه بالخصائص النفسية للوظيفة اللغوية ، ونشر فى ذلك رسالةً يؤذن كثير من صفحاتها بالاتجاهات الفكرية التى أسفرت فيما بعد عن اكتشافاته النفسية .

على أن أهم ما نفيده من المنهج التاريخى فى دراسة التحليل النفسى هو ما يسلطه هذا المنهج من أضواء على كثير من مفاهيم هذا العلم ، أضواء يستحيل علينا أن نحصل عليها بغير استخدام هذا المنهج . فقد ظل « فرويد » يبحث فى تشريح النخاع الشوكى بمعهد الفسيولوجيا فى ڤيينا زهاء ست سنوات أسفرت عن نتائج علمية من الدرجة الأولى ثم قضى بضع سنوات أخرى يبحث فى تشريح المخ وأمراضه فاكتشف مرض « الشلل الشبيه بالرُّقَاص » ، وأفرد له مكاناً فى المصنفات الإكلينيكية ، وقام بدراسته من النواحى التشخيصية والتشريحية والعلاجية — فضلاً عن اكتشافاته فى النخاع المستطيل ، ثم اكتشافه الإكلينيكى لما يعرف فى الطب العصبى « بالأجنوزيا » . وقد أصبحت هذه الاكتشافات جميعاً جزءاً من التراث الطبى خلّدت اسم « فرويد » فى ميدان الأمراض العصبية العضوية .

ومن البدهى أن باحثاً هذا حظه من التوفيق لا بدّ أن يكون قد انطبع بطابع أساليب البحث العلمى السائدة فى عصره ، ولا بدّ أن تكون المفاهيم الأساسية فى تصور الظواهر البيولوجية قد رسخت فى نفسه حتى أصبحت مقولات لا مندوحة عنها فى صياغة النتائج العلمية ، وذلك على الرغم من التعديل الجوهرى الذى أحدثه فى مذاهب البحث والتصور .

وجدير بالذكر أن « فرويد » ظل يشتغل فترة من الوقت بالطب العصبى

العضوى بعد أن حقّق اكتشافاته الأولى فى الأمراض النفسية ، إذ كان يجرى بحوثه فى كلا الميدانين فى آن واحد . فلا بد أن يكون لذلك كله أثره فى صياغة مكتشفاته السيكولوچية .

وتذكرنا المراحل التى مرت بها صياغة مكتشفاته السيكولوچية بالمراحل التى مرت بها صناعة جسم السيارة . فقد كان تصميم السيارة فى بادىء الأمر مماثلاً لتصميم العربة التى تجرها الجياد ، ثم تطوّر تدريجاً حتى أصبح شيئاً يختلف اختلافاً كبيراً عن شكل عربة الجياد . على أن السيارة بقيت على الرغم من هذا التطور مركبة تجرى على أربع عجلات . وبالمثل نجد « فرويد » يصوغ مكتشفاته فى الأمراض النفسية فى بادىء الأمر صياغة يبدو فيها أثر التصور الفسيولوچى واضحاً . ثم تحرر تدريجاً من هذا الأثر ، ولكنها تظل آخر الأمر متأثّرة بالمسلّمات الأساسية فى مباحث الأحياء ، مثل مبدء الحتمية والتصور الكمّى . فإذا لم نفطن إلى ذلك امتنع علينا فهم القضايا الأساسية المتصلة بمفاهيم مثل الشحنة ، وتفريغها ، والإزاحة ، ومبدأ الثبات ، وكل ما يتصل بالنظرة الكمية والاقتصادية إلى أحوال النفس وأمراضها .

وللمنهج التاريخى فى دراسة التحليل النفسى مزيّة أخرى هامة فضلاً عما سبق ذكره من مزايا . فهو أمان من الخطأ فى فهم طبيعة التحليل النفسى لدى من لم تتيسر له خبرة مباشرة بالوقائع التى يحاول هذا العلم تفسيرها . فقد درَج معظم القراء على الاطلاع على مؤلفات « فرويد » التى أصدرها فى الحقبة الأخيرة من حياته العلمية على اعتبار أنها غاية ما بلغه التحليل النفسى من التقدّم ، فكان من نتائج ذلك أن خرج معظم القراء بفكرة خاطئة مؤداها أن التحليل النفسى ضرب من الجدل النظرى فى طبيعة النفس وأمراضها . ذلك أنهم لم يفطنوا إلى أن «فرويد» أطلق العنان فى مؤلفاته المتأخرة لميل إلى الجدل الفلسفى طالما كبح جماحه فى الفترة الأولى من حياته العلمية . فلم يكن يقصد فى مؤلفاته المتأخرة إلى تكرار ما سبق أن بينه فى بحوثه الأولى من الوقائع الإكلينيكية وما أسفر عنه استقصاؤها

من نتائج وفقاً لأساليب البحث العلمى .

وليل « فرويد » إلى الجدل الفلسفى قصة ينبغى أن نشير إليها إشارة موجزة . فها هو يذكر فى كتابه هذا (ص٦٩) : « وفى المؤلفات التى تمت فى الأعوام التالية (ما بعد مبدأ اللذة ، نفسية الجماعة وتحليل الأنا ، الأنا والهو) أطلقتُ العنان للميل إلى التفلسف الذى كبحته زمناً طويلاً وأعملت فكرى فى حل جديد لمشكلة الغرائز » . والواقع أن « فرويد » كان منذ حداثته « أكثر تعطشاً إلى الأمور الإنسانية منه إلى موضوعات العلوم الطبيعية » كما يقول فى كتابه هذا (١٦ص) . ثم يعقب على ذلك قائلاً : « غير أن نظريات دارون التى شاع الاهتمام بها فى ذلك الحين اجتذبتنى إليها اجتذاباً قويًّا لما كانت تبشر به من تقدم فائق فى فهم الكون ، وأذكر أن استماعى مقال جوته الممتع عن الطبيعة يلقيه فى محاضرة عامة الأستاذ كارل برول قبيل تخرجى من المدرسة هو الذى جعلنى أقرر أن أدرس الطب » .

إن نظرة فاحصة لسيرة « فرويد » العلميّة — كتلك التى تتيحها لنا قراءة كتابه هذا — تبين لنا أنه كان بفطرته طلعة ، شديد الاحتفال بمشاكل الإنسانية على النحو الذى يميّز الفلاسفة السلفيين ، غير أنه يختلف عنهم فى الطريق الذى سلكه لإشباع شغفه بالمعرفة . فقد هداه تفكيره إلى أن طريق الاستقصاء وفقاً لأساليب البحث العلمى هو الطريق المأمون الكفيل بأن يجنبه شطط الجدل الفلسفى ، فأقبل على أدوات البحث العلمىّ يمارسها ويلتزم بها دون غيرها زهاء ربع قرن .

غير أن شغفه الفلسفى كان حافزاً حاسماً فى توجيه بحوثه ، وعاملاً هامًّا فى التفاته إلى الناحية الإنسانية فى أمراض النفس . وبعبارة أخرى إن طبيعة التحليل النفسى تقتضى أن يكون مكتشف هذا العلم فيلسوفاً من حيث اتساع الأفق ، عالماً من حيث أساليب البحث . كان الميل الفلسفى إذن عاملاً هامًّا فى نشأة

التحليل النفسى طالما كان مكبوحاً ، وكان من حق « فرويد » أن يشيع هذا الميل بعد أن أيقن أنه أنجز ما التزم بإنجازه من استقصاء علمى فكانت مؤلفاته المتأخرة « فيما بعد علم النفس » .

وقد أوضح « فرويد » رأيه فى نظراته الجدلية هذه فقال : « يكفى أن نذكر أنه بدا لى أمراً مشروعاً أن ألحق بالنظريات التى كانت تعبيراً مباشراً عن الخبرة فروضاً غرضها أن تعيننا على تفهم الوقائع ، فروضاً متعلقة بأمور لا يمكن أن تخضع للملاحظة المباشرة . وليس هذا بدعاً فقد نهجت العلوم السابقة نفس النهج . . . هذه الأفكار بمثابة بناء نظرى إضافى للتحليل النفسى ، يمكن لأى جانب منه أن يترك أو يعدل دون خسارة أو أسف حالما تتبين عدم صلاحيته » . (هذا الكتاب ص ٤٠ — ٤١) :

تنقسم مؤلفات « فرويد » إذن قسمين : القسم الأول ، ويقع معظمه فى الفترة الأولى من حياته العلمية يعالج — فى مقالات موزّعة على الدوريات الطبية — الوقائع الإكلينيكية ، ويعرض نتائج مشاهداته المنهجية . والقسم الثانى ، ويقع معظمه فى الفترة الأخيرة من حياته يناقش فيه فروضاً جدلية لا تعدو أن تكون فلسفة الباحث بعد أن انتهى من بحثه . هذه الحقيقة تغيب عن معظم القراء وتجعل دراسة التحليل النفسى دراسةً تاريخيةً شيئاً لا بدّ منه .

* * *

وينبغى أن أشير فى ختام هذا التصدير إلى أن الحق فى إبداء الرأى فى مبحث من مباحث العلم ليس حقًّا طبيعياً ، وإنما هو حق يُكتسب . ولا يكون اكتساب هذا الحق إلا بممارسة الأساليب التجريبية فى مشاهدة الوقائع موضوع البحث ، والتزام قواعد التنقيب الخاصة به . فنحن لا نسيغ أن يناقش أحدنا — بالغاً ما بلغ ذكاؤه — مسائل الكيمياء إلا إذا كان قد مارس التجريب الكيميائى فى معامله كما يمارسه الكيميائى . ولا جدوى من التذرع بالمنطق الفطرى فى مناقشة أحوال النفس بحسبانها أموراً فى متناول كل مفكر ، لأن القضية الأولى

فى التحليل النفسى أن جانباً عظيما من أحوال النفس يظل لاشعورياً ، وأن مقاومة عنيدة طبيعية لدى كل إنسان تحول دون البصر بهذا الجانب اللاشعورى إلا إذا استخدمنا منهجاً معيناً للظهور على هذه المقاومة ، ومن ثمّ فإنه من اللامنطق أن نتذرع بالمنطق فيما لا سبيل إليه بالمنطق .

فإذا اصطنعنا منهج التداعى الحر ، أى أن يحاول رجلان — يلتقيان لأول مرة — اتخاذ موقف تجريبى يطلق فيه الأول لخواطره العنان ليدلى بكل ما يمرّ بذهنه مهما كان تافهاً أو مشيناً ، ويستمع فيه الثانى إلى الأول فى هدوء ولكن من غير إجهاد فسيدركان — إن عاجلا أو آجلا — حقيقتين أساسيتين تضمان قضايا التحليل النفسى بأسرها . والحقيقة الأولى هى المقاومة ، أى أن الشخص الأول سيصطدم برغبته عن الإدلاء بما فى نفسه ، ثم بعدم قدرته على ذلك مهما كان إخلاصه فى إنجاز التجربة ، إذ يجد خواطره قد توقفت أو تشعبت واستخفّت. وإذا حاول الثانى أن يبصّر الأول فى أناة وصبر وتكرار بما لا يكون قد فطن إليه من التوقف والتشعب والاستخفاء فستعود خواطر الأول فى النهاية إلى الانسياب الصحيح ، وسيدرك عندئذ فى نفسه من المشاعر ما لم يكن فى حسبانه ، أو يتذكر من الحوادث ما قد أنسيه منذ عشرات السنين .

ومن الجلى أن المجهود الذى يبذله الثانى فى الظهور على هذه المقاومة يصلح مقياساً لمقدار الجهد الذى يبذله الأول فى الاستخفاء . فإذا ذكرنا أن ما يطفو على السطح من الخواطر عند نجاح تجربة التداعى الحر يكون عادة مما تنبو عنه النفس ، أو مما تجفل منه ، وضح لنا أن ثمة عمليّة قضت على المجهول أن يظل مجهولاً خارج هذه التجربة ، وأفضت إلى المقاومة دون الاستبصار داخلها . وقد أُطلق على هذه العملية لفظ الكبت . ومن اليسير أن ندرك أن بين القوى المكبوتة والقوى الكابتة صراعاً تفتضح آثاره فى أشكال المقاومة العديدة .

أما الحقيقة الثانية التى تُبرزها تجربة التداعى الحر فهى ظاهرة « النقل » ، أى أن الشخص الأول لا يلبث أن يستشعر إزاء الثانى من الانفعالات ما لا

يبرره الموقف الذى يكتنفهما . ويُستخدم « النقل » كوسيلة للمقاومة ، فإذا ما عولج كما يعالج غيره من ألوان المقاومة وضح فى النهاية أن هذه الانفعالات ترديد لمواقف وجدانية كان قد وقفها الأول من والديه أثناء طفولته . فإذا عرفنا أن الشخص الأول — إذ هو فى غمار حالة النقل — يرى الثانى حيناً كأنه أم يسعى إلى عطفها ، ويستشعر نحوها حباً جارفاً مشوباً بدفعات جنسية حتى ليغار عليها من كل دخيل ، ويراه حيناً آخر كأنه أب يرهبه ويخشى بطشه بوصفه غريماً يود استبعاده بالموت ، ويستشعر الذنب لما راوده نحوه من نوايا آثمة — لوضحت لنا فى النهاية كل مقومات ما يطلق عليه « الموقف الأوديبى » ، وتكشفت لنا طبيعة الحياة الجنسية أثناء الطفولة .

هذه هى الأحجار الأساسية فى بناء مبحث التحليل النفسى . وتتصل بها مجموعة من الحقائق يمكن الوقوف عليها تجريبياً على النحو السالف ذكره بصدد الكبت والصراع فى الحياة الجنسية إبان الطفولة ، والواقع أن الأثر العلاجى للتحليل النفسى يرجع إلى تنبه المريض إلى هذه الحقائق وإحساسه بها كخبرة حية . أما ما عدا ذلك من نظريات فليس جزءاً من مبحث التحليل النفسى وإنما هو ما يندرج تحت ما دعاه « فرويد » « ما بعد علم النفس » ، وهو كما قال « بناء نظرى إضافى للتحليل النفسى يمكن لأى جانب منه أن يُترك أو يعدّل دون خسارة أو أسف حالما نتبين عدم صلاحيته » .

مصطفى زيور
دكتور فى الطب
رئيس عيادة الأمراض النفسية بكلية الطب
بباريس سابقاً
أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس
عضو الجمعية الدولية للتحليل النفسى

فرويد فى الثانية عشرة من عمره.